من النصوص، تأثيراً عميقاً يتجاوز سطح المشاعر والوجود العميق للانسان؛ كما لا تكفي التقنية لتوليد التأثير. ان أحد الجانبين يشترط الآخر؛ هذا اذا تحدثنا عن الاعمال عميقة التأثير.

وبالنسبة الى موضوعنا، فاذا ظل حديثنا يدور حول الاطار الايديولوجي، أي اليهودية كإطار، فاننا سنجد ان تأثير التأويل الصهيوني قد لا يمتد الى أبعد من معتنقي هذه الديانة. ولكن الواقع يشير الى تأثير أبعد يصل الى معتنقي ديانات أخرى، وبخاصة المسيحية الغربية التي جعلت التوراة جزءاً أساسياً، وضرورياً، من «العهد الجديد»، ومضت، في بعض مذاهبها، الى اعتبار التوراة هي الاصل، على الرغم من الفوارق العميقة بين سلّم القِيَم المسيحية وسلّم القِيَم اليهودية. وهو أمر تعيه المسيحية الشرقية وعياً تامّاً، وترفض، في ضوئه، الدمج بين «يهوه» و«المسيح»، أو هي تصرّح، كما جاء على لسان بطريرك انطاكيا اغناطيوس الرابع، بأن «مسيحها من هنا... من القدس»[١٥]، أي انه ليس غربياً، وبأن من أكبر المشاكل التي يواجهها هذا الموقف، الذي يرفض مركزية الغرب، هو «موقف الشخص الذي عندما يجلس ليتحدث اليك تراه ينتقل بك بفكره وروحه ومراجعه، فيجعلك تدور الأرض كلها بدون ان تمرّ ببيتك... وبيتك هو البيت الأصيل»[١٦].

السؤال، اذاً: اذا كانت ايديولوجية الكتاب اليهود تبرّر هذا التطوّر المتواصل باتجاه خلق شخصية جديدة لليهودي، هي شخصية الاسرائيلي، أو الصهيوني واقعاً كما تبرزه الروائية ياعيل دايان بقولها: «انت اسرائيلي تركت كل شيء ووجدت الهاً جديداً؛ أمّا أنا، فقد كنت يهودياً فقط...»[١٧]، فما هو مبرر اولئك الغربيين، او المتغرّبين، الذين ينتقلون بالانسان الى كل الرموز، بما فيها الرمز اليهودي بشكل أساس، بدون ان يمرّوا ببيته؛ وان مرّوا جعلوه مروراً عابراً؟

هل هو التعاطف السياسي؟

مرة أخرى، نوافق غسان كنفاني على ان «جذور الصهيونية الفكرية سابقة على الحركة السياسية»[١٨]. فقبل أربعة وستين عاماً من انعقاد المؤتمر الصهيوني الاول في بازل، كان رئيس وزراء بريطانيا، دزرائيلي، ينشر رواية متخيّلة عن يهودي يثور على سلطة المسلمين، ويستولي على مركز الخلافة[١٩]. وبعده، تابع جورج اليوت هذا الايحاء، وتميّز اليهودي بعرقه وليس بدينه[٢٠]. أمّا علماء الآثار الذين توافدوا على المنطقة العربية، فكان همّهم الأول قراءة كل حجر، أو مدينة، أو أثر، في ضوء أساطير التوراة، الى درجة ان واحداً منهم هو «بريتشارد» يجمع معظم نصوص حضارات الشرق الأدنى ويبحثها في ضوء هذه العلاقة[٢١]. فما هو المنطلق الفكري الذي يقف وراء سياسة، وثقافة، وعلوم، بهذه المواصفات؟

اننا نرجّح ان المنطلق هو الأرضية الايديولوجية المستقرة في التوراة، والتي اكتسبت تجسيدها في سياق القرن التاسع عشر، وبمواصفاته السياسية والاقتصادية. وهذه الأرضية هي، بالضبط، أرضية العرق الابيض المتفوّق، والشتات المزعوم، و«الارض الموعودة». وقد لاحظنا ان هذه الأرضية قد تمحورت، مراراً، في مناطق عدة في العالم. فهي اميركا ذات يوم؛ وهي أجزاء من افريقيا في يوم آخر؛ وهي فلسطين مع أواخر القرن التاسع عشر. المهم، في كل هذا، انها أرض للغزو والسيطرة. وهذه هي نفسها الارضية الاستعمارية.

وسنجد، في القرن العشرين، ان هذه الارضية بدأت تغذّي نسيج الأدب الغربي والبحث العلمي في الغرب بالتلازم التامّ مع نشوء الكيان الصهيوني. وتمدّ هذا النسيج بمرتكزات ذات دلالة في نظرته ليس الى مصير هذا الكيان فقط، بل الى مصائر الانسان بعامّة.